من التفسير القرآني

كشف السرائر
في
معنى الوجوه والأشباه والنظائر

لابن العماد
المتوفى عام ٨٨٧ هـ

تحقيق ودراسة
الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد
قاض بمحاكم جمهورية مصر
والأستاذ المساعد بجامعات الجزائر

تقديم ومراجعة
الدكتور محمد سليمان داود
بكلية التربية - جامعة طنطا
والأستاذ المساعد بجامعة الرياض بالسعودية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
ت ٣٩٤٧٢٩١ إسكندرية

رموز الكتاب

ق = الورقة فى المخطوطة

ص = الصفحة فى الكتاب

جـ = جزء

ط = طبعة

هـ = هجرية

م = ميلادية

ت = توفى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أول من قام بالتفسير هو النبي عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم - النحل ٤٤ » وكان بيان النبي عليه السلام على ضربين :

١ - بيان المجمل فى القرآن : كبيانه الصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها ، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها ، وبيانه لمناسك الحج ، وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول : إن السنة تفسر الكتاب وتبينه .

٢ - زيادة على حكم الكتاب : كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها [١].
وكان فى قمة المفسرين من الصحابة على بن أبى طالب (٤٠ هـ) وعبد الله ابن عباس (٦٨ هـ) ولقد دعا النبي عليه السلام لابن عباس وقال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » [٢] وكان ابن مسعود (٣٢ هـ) يقول عنه : نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، ويقول عنه على بن أبى طالب : ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق [٣] .

ويتميز تفسير الصحابة بمعرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد

---

(١) القرطبي : تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ح١ ص٣٤ دار الشعب.
(٢) المصدر السابق ص ٢٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٠ .

الآيات ، وكل ذلك لا يعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين [1] . وعرف هذا التفسير بالتفسير المأثور .

وأما التفسير الذى يعتمد على شرح الألفاظ وبيان المقصود منها ، ويستند إلى معرفة اللغة من إعراب وبلاغـــة فهو المقصود الأول من التفسير [2] . ويعتبر كتاب : كشف السرائر فى معنى الوجوه والأشباه والنظائر لابن العماد منهجاً من مناهج هذا التفسير ، إنه يختار بعض ألفاظ القرآن الكريم ويتتبعها فى مواقعها ويبين الوجوه والنظائر فيها ، ولمـــا كان القرآن نزل بلغـة العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا على غير حاجة إلى هـــذا النوع من التفسير ، فكلهم يتكلمونه ويفهمونه ، ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه [3] . وهـذا التفسير يؤدى بنا إلى التفسير بالرأى . فقد روى ابن عباس عن النبى صلى الله عليـه وسلم أنه قال: «اتقوا الحديث على إلا ما علمتم ، فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النـار » (٤) . وروى عن النبي عليه السلام أيضاً أنه قال : « من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقـد أخطـأ » ، وقد روى عن عائشة أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يفسر من كتاب الله آيات ؟ علمه أيا هن جبريـل ، ويشرح ابن عطيه (٥٤٦ هـ) هـذا القول بأن هـذه الآيات تتعـلق بمغيبـات القرآن ؛ وتفسير مجمله ، وهذه أمور لا سبيل اليها الا بتوقيف من الله تعالى .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة تحقيق على عبد الواحد وافى جـ ٣ ص ٩٩٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٩٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٩٦ .

(٤) رواه الترمذى عن ابن عباس عن النبى — القرطبى جـ١ ص٢٧ .

ان الحديث الذى رواه ابن عباس فسر تفسيرين :

إحدهما : من قال فى مشكل القـــرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله .

وأما الثانى : من قال فى القرآن قولا يعلم الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار، وينظر القرطبى إلى هذا الاتجـــاه على أنه أثبت وأصح من الأول.

أن الرأى هو الهوى ، فمن قال فى القرآن قولا يوافق هواه ، لم يأخذه عن أئمـــة السلف ، فأصاب فقد أخطأ لحكمه على القـــرآن بما لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذهب أهل الأثر والنقل فيه ، ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى من كتاب الله عز وجل فيتجـــرأ برأيه عليه دون نظر إلى قول للعلماء أو قوانين اللغـــة والنحو ، وينتهى القرطبى أنه لا يدخل فى هذا الحديث تفسير اللغويين لغة القرآن والنحويين نحوه ، والفقهاء معانيه وأصوله ، فكل واحد من هؤلاء يجتهد اجتهاداً قائماً على قوانين العلم والنظر ، وليس قائلا بمجرد رأيه .

وأفسد القرطبي قول من قال : إن التفسير موقوف على السماع ، ويستند إلى قول النبى عليه السلام لابن عباس (اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل) لأن التأويل إن كان مسموعا صار كالتنزيل ، وليس هناك فائدة من تخصيصه بذلك وأما التفسير بالرأى المنهى عنه فيحصره القرطبى فى أمرين :

---

(١) رواه الترمذى عن ابن عباس عن النبي ـ القرطبى ص ٢٧ .

(٢) القرطبى : التفسير ص ٢٨ .

أحدهما : أن يتأول المفسر القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له هذا الرأى والهوى لما اتجه من القرآن إلى هذا المعنى ، كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أن الآية لا يتجه معناها نحو هذا التأويل ، وإنما هدفه أن يلبس على خصمه ، وقد تستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة.

الثانى : أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير معرفة بغرائب القرآن ، وما فيه من اختصار وحذف واضمار وتقديم وتأخير ، ويضرب القرطبى مثلا بقول الله تعالى «وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها» (الإسراء : ٥٩) والمعنى أنها «آية مبصرة» فظلموا الناس أنفسهم بقتلها ، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به الناقة كانت مبصرة ، ولا يدرى بماذا ظلموا ، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم فهذا من الحذف والاضمار [١] .

ويعتمد الحافظ بن كثير (٧٧٤ هـ) على التفسير المأثور ، ويرى أن أصح طرق التفسير هو أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل فى آية فانه قد فسر فى موضع آخر ، وإن لم نصل إلى هذا النوع من التفسير لجأنا إلى السنة فانها شارحة للقرآن وموضحة له ، وإذا لم نجد فى السنة لجأنا إلى الصحابة وأقوال التابعين ، ويستند إلى حديث النبى عليه السلام لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : «بم تحكم ؟ قال بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : اجتهد برأيى . قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله» [٢] .

---

(١) القرطبى: التفسير ص ٢٩ .

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ، مطبعة دار الشعب ح ١ ص ١٢ الى ص ١٥ .

ويعرض ابن عباس لأوجه التفسير فيقول :

(التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعرفه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله) [1].

الباطن والظاهر :

يقول الشاطبي (٧٩٠ هـ) « في الموافقات » رغم بعض المسلمين في أن للقرآن ظاهرا وباطنا وقد يستندون في هـذا القول إلى أحاديث للنبي كقوله عليه الصلاة والسلام : (ما أنزل الله آيـــة إلا لها ظهر وبطن) أي ظاهر وباطن ويفسر هذا الحديث بأن الظهر والظاهر هو ظاهر التلاوة ، وان الباطن هو الفهم عن الله لمراده [2] ، لأن الله تعالى يقول: « فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا — النساء ٧٨ » والمعنى أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب ولم يرد أنهم لا يفهمون نفس الكلام ، فالقرآن نزل بلغة العرب ، فكيف لا يفقهون معناه وهو منزل بلسانهم ، ولكن المراد أنهم لم يفهموا مراد الله تعالى من كلامه .

إن المراد بالظاهر هو المفهوم العربي ، والباطن هو مراد الله تعالى من خطابه وهذا المراد ليس أمر ظنيا يقول به الباطنية وفق ما يشاءون ويريدون ووفق هواهم، بل لابد من دليل قطعي يثبت المفسر به هذه الدعوى ، لأنها أصل يحكم به على تفسير القرآن الكريم فلابد من الرجوع فيه إلى النبي أو الصحابة ، وأن يكون له سنده ، وأن ينتظم في سلك المراسيل [3] ومثال ذلك سؤال عمر بن الخطاب

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . جـ ١ ص ١٨ . طبعة الشعب .

(٢) القاسمي : تفسير القاسمي محاسن التأويل جـ١ ص ٥١ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٣ .

لعبدالله بن عباس عن تفسير قول الله تعالى : « إذا جاء نصرالله والفتح ـ النصر ١ » وقرأ السورة إلى آخرها . فقال ابن عباس : إنما هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه اياه . فقال عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم . فظاهر هذه السورة أن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسبح بحمد الله ، ويستغفره إذا نصره الله وفتح عليه ، وباطنها أن الله نعى إليه نفسه .

ولما نزل قول الله تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا . المائدة ــ ٣ » فرح الصحابة ولكن بكى عمر وقال : مابعد الكمال إلا النقصان مستشعرا نعيه عليه السلام ، فما عاش بعدها إلا واحدا وثمانين يوما .

ولما قال الله تعالى : «عليها تسعة عشر . المدثر ــ ٣٠ » نظر الكفار إلى ظاهر العدد ــ فقال أبو جهل : لا يعجز كل عشر منكم ان يبطشوا برجل منهم ، فبين الله تعالى باطن الأمر ومراده بقوله: « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ــ المدثر ٣١ » .

ولما قال الله تعالى: « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ــ المنافقون ٨ » فنظر المشركون إلى ظاهر الحياة الدنيا . وقال تعالى : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ــ المنافقون ٨ » فحدد سبحانه وتعالى مراده .

إن المبتدعة هم الذين يتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنه وابتغاء تأويله . كما قال الخوارج لعلى بن أبى طالب : إنه حكم الخلق فى دين الله ، والله قد حكم الخلق فى دينه فى قوله « يحكم به ذوا عدل منكم ـ المائدة ٩٥» وقوله تعالى: « فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ــ النساء ٣٥ » لعلموا أن قوله: « إن الحكم إلا لله» غير مناف لما فعله على ، وأنه من جملة حكم الله .

إن كل ما كان من المعانى العربية التى لا ينبنى فهم القرآن إلا عليها فهو داخل تحت الظاهر كالمسائل البيانية والبلاغية [1]. ومن استند فى تفسيره لفهم خاص للنبي أو الصحابة أو التابعين أو فسر القرآن بالقرآن ، وعرف فيه العموم والخصوص ، والمجمل والمفسر ، والمطلق والمقيد ، والمثبت والمنفى ، والمحكم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ فهذا فهم لباطن القرآن ، وفهم لمراد الله تعالى .

وأما تفسير الباطنية أو التفسير الصوفى فيبتعد عن تلك المبادىء ، ويتفق وهوى النفوس ، وهو تفسير مبتدع فى الإسلام ومن تلك التفاسير . تفسير سهل بن عبد الله التسترى (٢٨٣ ﻫ) ومحى الدين العربى (٦٣٨ ﻫ) . وغيرهما أبو طالب المكى الصوفى ينظر إلى المفسرين الذين يستندون إلى الظاهر والعقل محجوبون عن فهم القرآن فيقول : « كل من نظر إلى قول مفسر يسكن إلى علم الظاهر ، أو يرجع إلى عقله ، أو يقضى بمذاهب أهل العربية واللغة فى باطن الخطاب ...هؤلاء جميعا محجوبون بعقولهم ، مردودون إلى ما يقدر فى علومهم ، موقوفون على ما تقرر فى عقولهم ، وهؤلاء مشركون بعقولهم وعلومهم عند الموحدين ، فهذا داخل فى الشرك الخفى [2] ، انه يرفض أسلوب العقل وأسلوب اللغة وأسلوب العلم فى فهم آيات الله . مع أن هذا هو المنهج المشترك بين الناس ، يتحاجون ويستدلون به فيما بينهم ، وبذلك لا تضيع الحقيقة .

وإذا عرفنا أن معانى القرآن تنكشف لكل صوفى بحسب استعداده الروحى وبحسب وقته وحاله ، أدركنا لماذا يختلف الصوفية فى مشاربهم ونزعاتهم واتجاهاتهم

---

(١) الشاطبي : الموافقات جـ ٣ ص ٣٩٠ تحقيق محمد عبد الله دراز

(٢) أبو طالب المكى : قوت القلوب جـ ١ ص ٦٩ .

الروحية ، فان ما يغلب على أحدهم من الأحوال لتلاوته القرآن غير مايغلب على الآخر ، والحقيقة أن كل صوفى عالم روحى بذاته ، وأن الطرق المؤدية إلى الله هى بقدر عدد هذه العوالم الروحية .[1] .

أننا سنتأدى بهذا المنهج إلى تفسيرات لا يعلم إلا الله مداها ، لاتحتكم إلى قانون ، فالقرآن واحد ، والتفسيرات كثيرة ، تضيع الحقيقة فيها ، فأيها هو الحق وأيها هو الباطل ؟

ويعرض الإمام الشاطبى فى كتابه الموافقات نماذج من التفسير سهل التسترى: إنه يفسر قول الله تعالى « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ـ آل عمران ٩٦ » فيقول باطن البيت قلب محمد صلى الله عليه وسلم . هذا المعنى لاتعرفه العرب ، ولا فيه من جهتها وضع مجازى مناسب ، ولايلائمه سياق الكلام .

وقال فى قوله تعالى : « واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين والجارذى القربى والجارالجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ـ النساء ٣٦ » أما باطنها فهوالقلب، والجار الجنب : النفس الطبيعية، والصاحب بالجنب : العقل المقتدى بعمل الشرع ، وابن السبيل : الجوارح المطيعة لله عز وجل ، وهذه المعانى لاتفهم من كلام العرب ، ولا يعرفها العرب لامن آمن منهم ولا من كفر . والدليل على ذلك ، أنه لم ينقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسيرا للقرآن يماثله أو يقاربه ، ولوكان عندهم معروفا

---

(١) الدكتور أبو العلا عفيفى : التصوف ـ الطبعة الأولى دار المعارف ١٩٦٣ ص ١١٨

لنقل، لأنهم كانوا أحرى بفهم ظاهر القرآن وباطنه باتفاق الأمة ، ولا يأتى آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها ، ولاهم أعرف بالشريعة منهم . وليس هناك من دليل يدل على صحة التفسير لا من سياق الآية ، فانه ينافيه ، ولا من خارج إذ لادليل عليه .

ويفسر سهل التسترى معانى كثيرة فى القرآن بأنها القلب أو النفس ، وليست بين هذه المعانى علاقـة أو رابطة أو تشابه ، ففى قوله تعالى : « صرح ممرد من قوارير ـ النمل ٤٤) يفسر الصرح على أنه نفس الطبع ، والممرد الهوى .

وفى قوله تعالى : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ـ النمل ٥٢ » أى قلوبهم عند إقامتهم على مانهوا ، والبيوت القلوب، فمنها عامرة بالذكر ، ومنها خراب بالغفلة عن الذكر .

وفى قوله تعالى: « ظهر الفساد فى البر والبحر ـــ الروم ٤١ » إن الله شبه القلب بالبحر ، والجوارح بالبر[1] .

فكيف يكون معنى الصرح هو معنى « البيت » هو معنى « البحر » وينسب هذ كله إلى كلام الله تعالى ؟

ويعرض صوراً الشاطبي أيضا من تفسير محي الدين بن العربى (٦٣٨هـ) فهى شبيهة برمزية سهل التسترى ، ونرى فيها الفكر الفلسفى اليونانى ، إنه يفسر قول الله تعالى « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ... » إلى قوله تعالى « ... كأنهم لا يعلمون ـ البقرة ٨٧ » يقول : إن جبريل هو العقل الفعال ، وميكائيل هو

(١) الشاطبى الموافقات جـ ٣ ص ٢٤٠

روح الفلك السادس وعقله المفيض للنفس النباتية الكلية الموكلة بأرزاق العباد . واسرافيل هو روح الفلك الرابع ، وعقله المفيض للنفس الحيوانية الكلية الموكلة بالحيوانات . وعزرائيل هو روح الفلك السابع الموكل بالأرواح الإنسانية كلها يقبضها بنفسه أو بالوسائط التى هى أعوانه ، ويسلمها إلى الله تعالى » ؟ (١)

إنه تفكير نابع عن فكر غير اسلامى ، وإن نظرية الفيض كلها نظرية خيالية لا تستند إلى نقل ، ولا تتأيد بعقل .

ويفسر قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ـ الرحمن ١٩ ، ٢٠ » يقول : « مرج البحرين » بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأجاج ، وبحر الروح المجرد الذى هو العذب الفرات (يلتقيان) فى الوجود الإنسانى « بينهما برزخ » هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجردة ولطافتها ، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها (لا يبغيان) لا يتجاوز أحدهما حده ، فيغلب على الآخر بخاصيته ، فلا الروح يجرد البدن ، ويخرج به ويجعله من جنسه ، ولا البدن يجسد الروح ، ويجعله ماديا ... سبحان خالق الخلق القادر على مايشاء (٢) .

إننا نلاحظ الألفاظ الفلسفية اليونانية : كالهيولى ، والنفس ، الحيوانية والنفس النباتية ، والعقل الفعال ، والفيض داخل تفسيرهم القرآنى .

ويشرح محيى الدين بن العربى منهج الصوفية فى التفسير ، فيقول إن الصوفى

---

(١) ابن العربى : تفسير ج ١ ص ٥١ .

(٢) ابن العربى : تفسير ج ٢ ص ٢٨٠ .

إذا سئل عن مصدر تفسيره ومرجعه فى فهم آيات القرآن فإنه يقول إن الله ألقى فى سرى مراده بهذا الحكم فى هذه الآية ، أو يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فأعلمنى بصحة هذا الخبر المروى عنه وبحكمه عنده » [1] . ويسخر محيى الدين بن العربى من علماء الظاهر الذين يسميهم علماء الرسوم ، فيحكى قول أبى يزيد البسطامى يخاطب علماء الرسوم « أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت ، يقول أمثالنا : حدثنى قلبى عن ربى ، وأنتم تقولون: حدثنى فلان — وأين هو ؟ قالوا : مات : عن فلان . . . أين هو ؟ قالوا :مات، وكان الشيخ أبو مدين رحمه الله إذا قيل له : قال فلان : عن فلان عن فلان . يقول ما نريد نأكل قديدا ، هاتوا ائتونى بلحم طرى — يرفع همم أصحابه ، فأولئك أكلوه لحماً طريا والواهب لم يمت ، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد [2].

وإذا دققنا النظر فى هـــذا المنهج ، وفيما وصلوا اليه من تفسير للقرآن هل نجد اتفاقا بينهما ؟ أم نجد أنهم يقولون مالا يفعلون ؟

إن منهجهم يقول : بأنهم يحكون مراد الله عن الله ، وتفسيرهم يحكى مراد أرسطو وأفلاطون وبما أطلقوه لخيالهم من أوهام لا تتفق مع منقول أو معقول. ويشترط المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبى فى قبول التفسير الصوفى : أن تكون هذه الأفهام يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربى القرآنى ، وأن يكون لها شاهد شرعى يؤيدها ، أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآنى ، وليس لها من الشرع ما يؤيدها ، فذلك لا يمكن أن نقبله على أنه تفسير

---

(١) ابن العربى : الفتوحات المكية جـ ١ ص ٢٧٩ .

(٢) ابن العربى : الفتوحات المكية جـ ١ ص ٢٨٠ .

للقرآن وبيان لمراد الله تعالى ، لأن القرآن عربي ، والله سبحانه يقول : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون - فصلت ٣ » ، وحاشا لله أن يلغز في آياته ، أو يعمى عباده طريق النظر في كتابه وهو يقول : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر - القمر ١٧ »[1] .

وإن منهج سهل التستري ومحيي الدين بن العربي في التفسير ، وما شابهما من الصوفية يستند على وجود « المجاز » في القرآن .

ولكن هل في القرآن الكريم مجاز ؟

يقول ابن تيمية (٧٢٨ هـ) في كتابه « الإيمان » : تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها إلى حقيقة ومجاز ، وتقسيم دلالتها أو المعاني المدلول عليها إن استعمل لفظ الحقيقة والمجاز في المدلول أو في الدلالة . فإن هذا كله قد يقع في كلام المتأخرين ولكن المشهور أن الحقيقة والمجاز من عوارض الألفاظ ، وبكل حال ، فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم : كمالك ، والنووي ، والأوزاعي ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو : الخليل ، وسيبويه ، وأبي عمرو بن العلاء[2] .

ويقول ابن تيمية : لم يقل أحد من سائر الأئمة من قدماء أصحاب الإمام أحمد أن في القرآن مجازا لا مالك ولا الشافعي ولا أبو حنيفة .

---

(١) الدكتور محمد حسين الذهبي : التفسير والمفسرون جـ ٣ ص ٤١ .

(٢) ابن تيمية : الايمان تحقيق الدكتور محمد خليل هراس مكتبة الانصار السنة المحمدية ص ٧٥ .

وينسب إلى الإمام أحمد أنه قال فى كتابه : « الرد على الجهمية » (هذا من مجاز اللغة) ويعنى به أن هذا مما « يجوز فى اللغة » [1].

ويرد ابن تيمية على من استبدل بقول الله تعالى : « جدارا يريد أن ينقض فأقامه — الكهف ٧٧ » فقد قالوا بأن الجدار ليس بحيوان ، والارادة إنما هى للحيوان ... فاستعمالها فى ميل الجدار مجاز. يقول ابن تيمية : لفظ الارادة قد استعمل فى الميل الذى يكون معه شعور وهو ميل الحى، وفى الميل الذى لاشعور فيه، وهو ميل الجماد، وهو مشهور فى اللغة، ويقال هذا السقف يريد أن يقع، وهذه الأرض تريد أن تحرث ، وهذا الزرع يريد أن يسقى [2] ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز فى القرآن قول الله تعالى : « واسأل القرية — يوسف ٨٢ » قالوا المراد بها أهلها، لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، يقول ابن تيمية لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثال هـذه الأمور هى التى فيها الحال والمحل كلاهما داخل فى الاسم ، ثم يعود الحكم على الحال وهو السكان ، وتارة على المحل وهو المكان [3].

فالمجاز غير موجود فى القرآن .

ولابد فى تفسير القرآن من فهم الحديث ولأن الفرق الاسلامية التى ضلت عن الحق إنما كان بسبب تفسيرهم للقرآن برأيهم ومعقولهم ، وما تأولوه من اللغة دون

---

(١) المصدر السابق ص٧٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٣ .

اعتمادهم على أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين (١) .

الوجوه والنظائر :

هو نوع من أنواع التفسير فى القرآن الكريم ، والنظير هو المماثل والشبيه ، والمقصود هو البحث فى الألفاظ القرآنية المتماثلة ، وبيان وجوة معانيها المتباينة .

وتنقسم الألفاظ إلى أربعة أقسام هى المشتركة ، والمتواطئة ، والمترادفة ، والمتزايلة فالألفاظ المشتركة : هى اللفظ الواحد الذى يطلق على موجودات كثيرة مختلفة بالحد والحقيقية اطلاقا متساويا مثل كلمة « العين » يطلق على العين الباصرة وينبوع الماء ، وقرص الشمس .

وأما المتواطئة : فهى التى تدل على أعيان متعددة بمعنى واحد مشترك بينهما كدلالة اسم « الإنسان » على زيد وعمرو ، واسم الحيوان على الانسان والفرس والطير ، لأنهـا جميعا مشتركة فى معنى الحيوانية .

وأما المترادفة : فهى الاسماء المختلفة الدالة على معنى يندرج تحت حد واحد كالخمر ، والراح ، والعقار فكلها بمعنى واحد هى المائع المسكر المعتصر من العنب .

وأما المتزايلة : فهى الاسماء المتباينة التى ليس بينها شىء من هذه النسب كالفرس والذهب والثياب ، فهى ألفاظ مختلفة تدل على معانى مختلفة بالحد والحقيقة (٢) .

فالنظائر هو بحث فى الألفاظ المشتركة ، والمتواطئة ، والمترادفة ، وبيان وجوه معانيها المختلفة .

---

(١) المصدر السابق ص ٩٧ .

(٢) الغزالى : معيار العلم المطبعة العربية بالقاهرة ص ٤٧ .

وهـــذا هو من معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عدة وجوه ، ولا يوجد ذلك فى كلام البشر [1].

ويقال إن على بن أبى طالب قال لابن عباس عندما أرسله إلى الخوارج ليحاجهم: اذهب إليهم فخاصمهم ، ولا تحاجهم بالقرآن فإنه ذو وجوه ، ولكن خاصمهم بالسنة [2]. فالخوارج أساءوا فهم القرآن ، ولم يقصدوا معارضته ، لكنهم فهموا منه مالم يدل عليه ، ونتج عن ذلك أنهم اتهموا المسلمين بالكفر بالذنوب والخطايا، واستحلوا دماءهم وأموالهم [3].

ويذكر جلال الدين السيوطى إن النبى عليه السلام والصحابة والتابعين قد تعرضوا لشىء من الوجوه والنظائر ، فينسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » [4].

وينسب إلى أبى العالية أنه قال: «كل آية فى القرآن يذكر فيها « حفظ الفرج» فهو من الزنى إلا قوله تعالى :«قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم - النور ٣٠» [5].

---

(١) جلال الدين السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن الهيئة المصرية للكتاب جـ ٢ ص ١٤٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٤٥ .

(٣) ابن تيمية :الفرقان بين الحق والباطل ص٢٥ .

(٤) جلال الدين السيوطى: الاتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٦١ .

(٥) المصدر السابق ص ١٦٣ .

وأخرج عن سعيد بن جبير أنه قال : « العفو » فى القرآن على ثلاثة أنحاء : نحو يجاوز عن الذنب ، ونحو فى القصد فى النفقة « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ـ البقرة ٢١٩ » ، ونحو فى الإحسان فيما بين الناس « إلا أن يعفو أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ـ البقرة ٢٣٧ » .

ويبدو أن من أوائل من كتب فى « الوجوه والنظائر » مقاتل بن سليمان (١٥٠ هـ) وابن الجوزى (٥٩٧ هـ) وابن الدمغانى (٥٦٤ هـ) ، وأبو الحسين محمد بن عبد الصمد المصرى وابن فارس .

ومؤلف الكتاب المحقق محمد بن العماد المصرى (٨٨٧هـ) وهو صوفى معتدل، وإذا حاولنا أن نحدد مدى أصالته فيكفينا ما يقوله عن نفسه فى افتتاحية كتابه : (قد استخرت الله تعالى فى تأليف كتاب أجمع ما فيه ما جاء من الآيات أو، ما فيه من الوجوه والأشباه والنظائر ، كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى أجمعه من كتب التفاسير واللغة وغيرها ، وسميته كشف السرائر فى معنى الوجوه والأشباه والنظائر (٢) أى أنه قام بدور الجامع وقد تبين لنا أنه جمعه من عدد كتب :

١ ـ الوجوه والنظائر لمقاتل بن سليمان ١٥٠ هـ
٢ ـ الوجوه والنظائر لأبى عبد الله الدمغانى ٥٦٤ هـ .
٣ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى ٦٩١ هـ .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦٤ .
(٢) ابن العماد: كشف السرائر فى معنى الوجوه والأشباه والنظائر ص ٢٥ .

واعتمد عليها اعتماداً كبيراً يكاد أن يكون نصيا فى جمعه ، ويمكن أن نقول إن ابن العماد حفظ لنا شيئا عزيزاً من تراثنا الإسلامى، ويمكن أن نقول أيضا إن هذا الكتاب هو أول بحث ينشر عن ابن العماد. فلم يسبق المحقق أحد إلى نشر شىء عنه ، وليس أعظم من كتاب الله تعالى وما يتعلق به من تفسير، وبيان وجوه معانيه .

وقد عزم المحقق أن يتابع تلك البحوث الإسلامية ، وأرجو الله أن يوفقه إلى ما عقد النية على نشره وهو كتاب (الوجوه والنظائر لابن الجوزى) وقد التزم المحقق منتهى الأمانة العلمية فى تحقيق نصوص الكتاب، وقد سبق أن قلت أن ابن العماد صوفى معتدل، قد تركت فيه الصوفية لمساتها وبصماتها:

أ ـ إنه يستند إلى أحاديث لم يقف عليها المحقق فى كتب الصحاح كالحديث الذى يفتتح به مقدمته « لا يكون الرجل فقيها كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة » وقد سبقه إلى ذكر هذا الحديث مقاتل بن سليمان ومن الواضح أن مقاتل كان كذابا فى الحديث . ومن أشباه هذا الحديث ما يذكره ابن العماد فى كتابه عن حديث قدسى يقول الله تعالى : « إذا كان الغالب على عبدى ذكرى عشقنى وعشقته » وهذا الحديث لم يقف عليه أيضا المحقق .

إن لفظ العشق لم يرد فى القرآن أبدا ، ولم يرد إلا لفظ الحب . والعشق لا يمكن أن يكون إلا بين رجل وامرأة ، ولا يمكن أن يتعدى ليكون بين الله والناس. إن ابن العماد لم يتحقق من صحة الكثير من الأحاديث التى يرويها فى مؤلفه .

ب ـ انه يروى قصصا لا تتسم بالصدق والواقعية. فيروى فى ص ٤٥ أن رجلا نظر إلى امرأة بشهوة ، فجاءته من الهواء لطمة، فقلعت عينه ، وسمع قائلا يقول :

لطمة بنظرة ، وإن زدت زدناك » .

وهذه قصة تأخذ ثوبا دينيا ظاهريا ، وإذا ناقشناها إسلاميا ومنطقيا انتهت إلى بهتان يصدقها بسهولة العامة من المسلمين .

وهذا ضلال وتضليل للناس . فهل هذا الرجل صالحا أم فاسدا ؟ ، وإذا كان صالحا فكيف ينظر إلى امرأة بشهوة ؟ وإذا كان فاسدا كيف تجرى على يديه الكرامات التى يقولون عنها ؟ ومن هذا الرجل ؟ ومن الراوى لهذه القصة ؟

ويقول ابن العماد فى ص ٩٣ إن أفضل الجبال (ق) وأن هذا الجبل محيط بالدنيا، وإنه عبارة عن زمرده خضراء ، وإن الله أقسم به فى كتابه بدليل قوله تعالى (ق . والقرآن المجيد) .

لم يذكر لنا ابن العماد مصدر هذا التفسير ، وإذا نظرنا إلى قول الله تعالى (ق . والقرآن المجيد) لم نجد فى هذه الآية ما يشير إلى أن (ق) جبل ، وهناك آراء كثيرة للفقهاء والمفسرين عن الحروف التى افتتح الله بها بعض السور من القرآن ، وليس بين تلك الآراء ما ذهب اليه ابن العماد .

وإنه يقول فى ص ١٣٦ إن ابليس سأل موسى عليه السلام أن يسأل له الله تعالى فقال : يارب هل له من توبة ؟ قال : إن سجد لقبر آدم تبت عليه . فقال : أنا ما سجدت له حيا ، فكيف أسجد له ميتاً ؟

يجب أن لا يحكى عن الله إلا بما ورد فى كتاب الله ، أو بما صدق من أحاديث رسول الله . وهذه قصة لا تتفق مع منقول أو معقول ومن أخطاء الصوفية قبول ونشر أمثال تلك القصص .

ويقول ابن العماد : إن الله تعالى خلق جميع الأنبياء من نوره النبى ، ونور الشمس

والقمر والنجوم ، ونور العرش من نوره ،فهو نور . وهذا إطراء نهى النبى عليه الصلاة والسلام المسلمين عنه . لا نطروه كما أطرت النصارى المسيح إبن مريم إنما أنا النبي عبد الله ورسوله .

وعندما تعرض ابن العماد للصفات الالهية أثناء تفسيره لبعض آيات القرآن الكريم فإنه يحكى موقف أهل السنة والجماعة من أن كلام الله قديم،وليس بحرف ولا صوت،وأنه تعالى عن الأوهام والشبهات ، فمن شبه أو مثل وقع فى الزلل ، وحبط جميع ما عمل .

إن تحقيق هذا الكتاب لبنـــة فى صرح التراث الاسلامى ، ونشر لأبحاث المسلمين الأوائل ، نرجو أن ينتفع به المسلمون .

دكتور
محمد سليمان داود
الأستاذ المساعد ــ جامعة الرياض
٢٩ رمضان ١٣٩٧ ﻫ
١٢ أغسطس ١٩٧٧ م